



يبدو السؤال الأنف الذكر غريباً بعض الشيء في هذا التوقيت، فقد مضى عامان على تحول الثورة السورية إلى ثورة مسلحة، ولا قيمة تبعاً لذلك لطرح مثل هذا السؤال بعد كل الذي جرى خلال العامين الماضيين.

لكن الاستعصار الذي تعشه الثورة، والتقدم الذي أحرزه ويحرزه النظام في مناطق عدّة، وخاصة في دمشق وحلب (هناك تقدم في مناطق أخرى للثوار)

كل ذلك أعادني شخصياً إلى هذا السؤال، لا سيما أني أزعم أنني كنت من أوائل من حذروا من إستراتيجية النظام المتمثلة في استدراج الثورة إلى السلاح تبعاً لسهولة إجهاضها بعد ذلك من وجهة نظره.

كما أن طرحي قد يكون مفيداً لتجارب أخرى، لا سيما أنه من العيب القول إن ربيع العرب قد انتهى، مع أن هناك من يسعى لتكريس هذه المقوله، وربما أراد البعض أن يجعل من ثورة سوريا درساً لمن يفكرون في المطالبة بالإصلاح، الأمر الذي نسمعه يتزداد بشكل يومي هنا وهناك.

وحتى لا يذهب البعض إلى القول إننا نبُث اليأس، فإننا نردّ ابتداء بأن إستراتيجية النظام لم تكن بذلك الذكاء الذي يتتصوره كثيرون، رغم نجاحها في منحه القدرة على البقاء، وجعل إمكانية نجاته بهذا القدر أو ذاك واردة، ليس بسبب قوته وتماسكه، بل لأن الشعب السوري صار يقاتل الحرس الثوري وحزب الله والكتائب الشيعية معاً، ما يفرض خلا رهيباً في ميزان القوى بين قوة مركبة تدار بعناء وتحظى بتسلیح متقدم، وبين مجموعات مسلحة تتنازعها مشارب شتى، ودول عديدة وتناقضات بلا حصر.

نقول إنها لم تكن ناجحة رغم ما ذكر آنفاً لسبب بسيط هو أن التنازلات التي كان يمكن للنظام أن يقدمها في بداية الثورة، وربما كانت كافية لوقفها، تبدو أقل بكثير من أية تنازلات سيقدمها في أي حل سياسي قادم، فضلاً عن تدمير البلد، والتزيف الذي تعرضت له إيران، وكذلك حزب الله، ليس على صعيد مالي وعسكري فحسب، بل بدخولهما في مزاج عداء غير مسبوق مع غالبية الأمة.

ونشير إلى هذا البعد الأخير لأن من شبه المؤكد أن إستراتيجية المواجهة للثورة لم تُرسم في القصر الجمهوري في دمشق

وحسب، بل حصلت على تأييد واضح من طهران.

في 20 أبريل/نيسان 2011 – ولم يكن قد مضى على اندلاع الانتفاضة السورية سوى شهر وبضعة أيام – نشرت مقالاً بعنوان "عسکرة الثورة في سوريا"، يمكن لمن شاء الرجوع إليه من خلال غوغل، وفي تلك الأثناء، وحتى بعدها بأربعة شهور كان النظام يتسلل أية رصاصة تطلق من الناس لكي يتهم الثورة بالإرهاب، بحسب تصريح نائب بشار فاروق الشرع في مقابلته الشهيرة مع صحفة الأخبار اللبنانية المقربة من حزب الله.

أنقل هنا، بعض فقرات المقال المذكور من أجل استعادة المشهد الذي تحدث عنه الشرع وبرز لاحقاً.

أضعها دون أي تغيير بين مزدوجين، كما يلي:

"الآن، وبعد حديث أولي عن "مندسين" أطلقوا الرصاص على المحتجين وقوى الأمن وقتلوا الكثيرين، يلجاً النظام إلى لعبة النظام الليبي بطريقة أخرى، أعني لعبة العسکرة (عسکرة الانتفاضة الشعبية)، وذلك عبر تحويلها إلى معركة سلاح، ساعياً من خلال ذلك إلى تحقيق هدفين، الأول تبرير القمع العنيف الذي يمكن من خلاله بث الخوف في نفوس الناس ودفعهم نحو التأيي بأنفسهم عن المشاركة في الحراك، والثاني تخويف الناس من فقدان الأمن وتحول الوضع إلى ما يشبه الحرب الأهلية، لا سيما أن بعض الجهات التي سيحاول لحق الحراك المسلح بها (القاعدة والسلفية الجهادية) ليست منضبطة السلوك، الأمر الذي يأخذ مثاله من الحالة العراقية، ولعل ذلك هو السبب خلف التركيز على الموضوع الطائفي، ربما من أجل تخويف العلوبيين (والأقليات الأخرى) ودفعهم نحو الالتحام بالنظام، مع أن القطاع الأكبر منهم مظلوم كما سائر السوريين.

لا ننسى أن للنظام السوري قدراته المشهودة على اختراق مجموعات السلفية الجهادية (بسبب تعامله معها في معركة العراق)، وبالتالي دفعها نحو ارتكاب أعمال تخيف الناس وتحرف حراكم الشعبي السلمي نحو مسارات عبثية.

ولعل ذلك هو ما يفسر حديث السلطة عن الأسلحة القادمة من العراق، لأن منطق الأشياء يقول إن تلك الأسلحة لن تتدفق من القوى الشيعية التي تحازم النظام تبعاً لانحياز إيران إليه، حتى لو كان لبعضها إشكالات سابقة معه بسبب موقفه السابق من المقاومة العراقية، ولكنها ستتدفق (نظرياً بالطبع) من القوى القريبة من تنظيم القاعدة التي لا تزال نشطة في العراق، وتؤمن بعولمة الجهاد". انتهى الاقتباس من مقال 20/4/2011.

سنعرف لاحقاً أن النظام لم يكتف في سياق مساعيه لعسکرة الثورة بما ذكر آنفاً، بل قام بالإفراج عن عدد من معتقلي السلفية الجهادية من سجونه (سجن صيدنايا تحديداً)، الأمر الذي سيسهل عليه لاحقاً، ليس فقط الرد بعنف واسع النطاق، وتجميع الأقليات من حوله، وإنما بحشر الثورة (المسلحة الآن) في إطار يخشاه العالم ويمكنه التحالف ضده.

وليس غريباً اليوم أن بشار قد أصبح يقدم نفسه بوصفه الدرع الذي سيصد الإرهاب عن عواصم العالم، وأن هناك من يشتري هذه البضاعة أيضاً، إما لأنه صدقها بالفعل، وإما لأن تصدقها يناسبه، ولا ننسى هنا العامل الإسرائيلي الأكثر تأثيراً على المستوى العالمي، والذي يخشى هذا البعد دون أدنى شك.

هل يعني ذلك أننا ندين العمل العسكري؟ كلاً من دون شك، فقد كان محقاً من الناحية الأخلاقية، ومن خاضوه كانوا في غالبيتهم الساحقة مخلصين، وأية أخطاء تُنسب إليه لا تساوي شيئاً أمام إجرام النظام، لكننا نتحدث بمنطق القراءة المتأخرة لما جرى.

سيرد كثيرون: وهل كانت الثورة السلمية ستطيع بالنظام؟ الجواب: نعم إذا أديرت بشكل صائب، ومن خلال قوة مركزية تحدد الفعاليات وتحركها بشكل منضبط، لا سيما أن الوضع السوري بوجود غالبية ساحقة ضد النظام، كان مؤهلاً تماماً

للوصول بالحرك السلمي خلال شهور نحو العصيان المدني، وخاصة في العاصمة.

ولكن المصيبة أن الثورة كانت في الحالين تعاني من تأمر دولي، ليس فقط على النظام لإخضاعه، بل على الشعب أيضا، إذ فضل الصهاينة شيطاناً يعرفونه على آخر لا يعرفونه، وجعلوا من سوريا ثقباً أسود يستنزف جميع الأعداء، فيما توافقوا مع عرب آخرين أرادوا مخطة إجهاض لربيع العرب، وقد كان لهم ما أرادوا، مرحلياً على الأقل.

مرة أخرى، لا مجال هنا للعودة إلى الوراء، لكن مثل هذا الحديث يبدو مفيداً لاستلهام العبر والدروس، بل إن بالإمكان القول إنه قد يكون مفيداً خلال مرحلة لاحقة في سياق المواجهة مع أي حل سياسي لا يلبي مطالب السوريين في التحرر من الدكتاتورية والمنظومة الطائفية التي وقفت خلفها وحرستها طوال عقود.

الجزيرة نت

المصادر: